فلسفة التحديث والتغريب أثناء فترة الاحتلال

✍د/عبد القادر تومي
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

تمهيد

الحمد لله مستحق الحمد الذي أَطعم وأنعم ويسر ورحم، والصلاة والسلام على من اصطفاه رحمة للعالمين وقائداً للغر الميامين وإماماً للمتقين وشفيعاً للمسلمين سيدنا ونبينا رسول الله (محمد بن عبد الله) عليه وعلى صحابته الأبرار وآله الأخيار.

اما بعد

تحاول هذه الورقة البحث في النهج الذي استخدمته سياسة الاحتلال الفرنسي اتجاه مؤسسات التعليم الجزائرية والتي تلخصها تلك المقولات التي كان يسوقها المستعمر الفرنسي لإيهام الرأي العام العالمي من جهة، ولأجل كسب الرهان في الجزائر من جهة أخرى.

من بين هذه المقولات الفلسفية التي كان يروج لها المحتل الفرنسي فكرتي التحديث والتغريب باعتبار الأولى تعني إخراج الجزائريين من تخلفهم والثانية تعني إلحاقهم بالأمم الغربية المتحضرة في أوربا. ان وصف الواقع التاريخي يحيلنا بالضرورة الى الحديث عن الفاتورة الباهظة التي خلفها فترة الاستدمار، واستثارة الظلم والاضطهاد والإبادة الجماعية التي لحقت بالجماعات أثناء فترة الاحتلال، وكذا الانتهاكات التي مست حقوق الإنسان من قبل المستعمر الغاشم فليس أقل جرائم الاستعمار انه **شوه الوعي برسمه لصورة المستعمر المتعالية، في مقابل الصورة الدونية لصاحب الأرض. لقد مارس الاغتصاب حتى على مستوى الوعي وأكثر من ذلك أعطى شرعية لفعله وهو امتياز مثير يمنحه لذاته على حساب أصحاب الحق.**

أما إذا جئنا لوصف الواقع حاليا فإننا نستغرب التبريرات المؤدلجة التي قدمها الاستعمار للمأساة الاستدمارية وسوقها بواسطة الإعلام أحيانا وبالأدب أحيانا أخرى . فهاهي الديمقراطية الغربية قد كشفت عن وجهها أثناء فترة الاستدمار والاستخراب للشعوب المظلومة، في الفترة التاريخية التي عرفت بمرحلة الاستعمار.إن الغرب في تعامله مع الأخر يميز بين ما هو حلال عليه وحرام على غيره، فما يعترف به لأبنائه من حريات وحقوق، لا ينطبق على الآخر خارج حدوده باسم الاستعلاء والغلبة، ويصل الأمر إلى أن يرى في سلوكه الاستعماري، أو التدخل المباشر كما يحدث اليوم ترسيخا وتكريسا للديمقراطية كما يتصورها هو. ان ورقة الديمقراطية تطبق ملونة بألوان المصالح الإستراتيجية أحيانا، وباديولوجيا الغلبة والتفوق أحيانا أخرى.

إن الإشكالية التي تطرحها هذه الورقة تتمثل فيما يلي

كيف تبنى الاستعمار مسألة التحديث؟

هل كان المستعمر الفرنسي معول بناء وتعمير وتحضير كما يجليه الفكر الاستعماري؟

كيف حاول المستعمر تغريب المجتمع الجزائري؟

ما هي الطرق المستخدمة في التغريب ؟

وما هي الوسائل التي استخدمها المستعمر ذلك ؟

لماذا لم يكتف المحتل على المراهنة على الخط العسكري فقط في مواجهته للشعب الجزائري؟

التحديث

استخدام لفظة" التحديث" أو لفظة "الحداثة". والأفضل في نظري استخدام لفظة "التحديث" لأن رنة التفعيل تفيد فعلاً نشطاً ومتجدداً وقاصداً. وما نحن بصدده يتعلق بالفعل الهادف الذي يحركه المجتمع أو على الأقل تحركه الطليعة التي تقود المجتمع الناهض. وبرغم ذلك يبقى مجال لاستخدام لفظة "الحداثة" لوصف مجمل الظواهر الخارجية التي تتولد من

عملية التحديث، دون أن يعني ذلك بالضرورة الاتجاهات والتفاعلات الداخلية التي هي جوهر عملية التحديث"الحداثة" كمفهوم يشير إلى المشروع الحضاري الأوروبي الذي صاغته الطبقة الرأسمالية الأوروبية الصاعدة على أنقاض المجتمع الإقطاعي. والحداثة – كما يقرر عدد من الكتاب الغربيين الثقات من أبرزهم أنطوني جيدنجز عالم الاجتماع البريطاني الشهير – تقوم على أسس عدة. وأول هذه الأسس احترام الفردية، بمعنى إعطاء الفرد باعتباره فردًا كيانًا مستقلاً له حقوقه السياسية في ظل نظام ديموقراطي يؤمن بالتعددية السياسية والحزبية، وحقوقه الاقتصادية والتي تتمثل في حقه بالتنقل والعمل من غير اكراه، وحقوقه الاجتماعية والثقافية، والتي تتمثل في الخدمات التي توفرها الدولة للمواطنين. والأساس الثاني من أسس الحداثة الغربية هو العقلانية. وقد نجحت الرأسمالية باعتبارها تنظيمًا اقتصاديًا متميزًا بحكم اعتمادها في التخطيط الاقتصادي والصناعي وفي التنفيذ على العقلانية، التي لا بد أن تنعكس على عملية صنع القرار. وهذه العملية لا تتم في الغرب بالطريقة العشوائية التي تتم في عديد من البلاد العربية، ولكن لها أصول علمية ومناهج في علم الإدارة معترف بها. والأساس الثالث من أسس الحداثة الغربية هو الاعتماد على العلم والتكنولوجيا لإشباع الحاجات المادية لملايين السكان. وقد عبر عن هذه الحداثة الغربية المجتمع الصناعي، الذي استفادت ملايين البشر من إنتاجه لسد احتياجاتها الأساسية.

لقد ولدت فكرة التحديث التي امن بها الغرب الاستعماري أثناء القرن التاسع عشر أنماطا ونظما وأفكارا جديدة أعادت صياغة المفاهيم وقولبتها من جديد، وبررت مسوغات الفعل الاستعماري الذي عانت من ويلاته الكثير من الشعوب وأعطت مسوغا أخر للتدخل في جغرافيا البلدان لإفسادها باسم الديمقراطية وحماية حقوق الإنسان .

وفي دراستنا هذه سنحاول أن نبين ان التغريب باعتباره السير في الاتجاه الكلى نحو الغرب مبنى ومعنى، ومظهرا وجوهرا وأدوات وغايات، بما يشكل استلابا كاملا للإرادة الشعبية، واغترابا عميقا عن الذات وذوبانا ثقافيا وحضاريا وتبعية أو محاكاة وتقليدا، بما يشكل في النهاية اغتيالا للهوية الثقافية والحضارية الوطنية والقومية وذلك لم يكن مسالة اعتباطية في المخيال الغربي بل كان فلسفة عميقة وإستراتيجية شاملة تستهدفا شعبا في مقوماته وهويته العربية والإسلامية والامازيغية.

أشير إلى أن الغرب يمتلك مختبرات لغوية إلى جانب المختبرات النفسية التي تدرس نفسية الإنسان العربي ولغته وتحاول تسويق بعض الألفاظ والمصطلحات اللغوية التي تحمل من المعاني ما يناقض مضمون الفعل الذي يمارسونه على أرض الواقع، فقد اختصر الغرب قضية فلسطين وأذابوها في مصطلح أوسع، حيث قاموا بتسويق مصطلح : " أزمة الشرق الأوسط " وبذلك اختفى اسم فلسطين تماما من بؤرة الاهتمام وانزوى في هامش الشعور، كما استخدموا عبارة الإفراط في استخدام القوة للتغطية على عمليات القتل البشعة في الوطن العربي. من المصطلحات التي سوقها الفرنسيون أثناء احتلالهم للجزائر ما يلي: فكرة الاستعمار

و قد قام علماء جهابذة باقتراح بدائل أخرى مثل:

استدمار (مولود قاسم نايت بلقاسم الجزائري) استخراب (عثمان) استكبار (علي شريعتي والإيرانيون كمصطلح قرآني).

لأن الاستعمار من التعمير بصريح النص القرآني في حديثه عن الأرض "واستعمركم فيها".

فإن هذا اللفظ الاستعمار، جاء في الكتاب العزيز على لسنان صالح عليه السلام، والمعنى أن الله جعلكم في الأرض، وطلب منكم اعمارها، فالسين والتاء تعني الطلب في غالب الأفعال، كاستفهم، أي طلب الفهم وهكذا، فهذا أمر بتعمير الارض،،

في المعجم نجد الجذر:

عمر:

عَمَرَ-عَمْرًا=المنزلُ بأهله=كان مسكوناً فهو معمورٌ.

عَمَرَ-عُمُوراً وعَمَارَةً وعُمْرَاناً=الرجلُ بيته أي لزمهُ

إستعمره(في المكان)=جعله يعمره

عَمَّرَ وأَعْمَرَ(المنزل)=جعله آهِلاً.

العِمارة=مصدر ما يُعْمَرُ به المكان.

فإذا قلنا الإستعمار: وهو طلب تعمير الأرض التي تستحل، فهل عمل المستعمرون وفق هذا الطلب؟

لقد درج الغرب على استعمال كلمات براقة للتضليل والتمويه وإكساب الفعل الشائن عباءة زاهية الألوان فوصفوا الاحتلال البشع بأنه استعمار ووجدوا من يقيس ذلك على ما ورد في القرآن الكريم، الاحتلال يبقى هو الاحتلال، سواء أكان احتلالا عسكريا مباشرا أو احتلالا فكريا وثقافيا أو احتلالا نفسيا أو اقتصاديا أو علميا.

فكرة الحرية على مقاسهم

فكرة الديمقراطية وفكرة حقوق الانسان

ان التناقض الذي حملته الثورة الفرنسية بين جوانحها من خلال المبادئ التي اعلنتها امام الشعوب الاوربية وغير الأوربية وفلسفة الهيمنة التي طبقتها من خلال المخطط الاستعماري الشامل يكشف عن مواطن الخلل في المعادلة الفرنسية التي تحمل في احد اطرافها مبادئ الديمقراطية وحقوق الانسان وقيم المساواة والحرية والإخاء التي اقرها الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين والمظالم التي ارتكبها العسكريون والسياسيون في حق الشعب الجزائري خلال الفترة الاستعمارية.

لقد راهن المستعمر على الحل العسكري فتفنن جلادو ومصاصو الدماء من السفاحين والمجرمين بالتنكيل بالجزائريين، حتى النازيين لم

يرتكبوا مثله في الحرب العالمية الثانية، ومن أشكال التعذيب: الضرب بالسياط والأرجل ومؤخرات البنادق، وتسليط الكلاب البوليسية على المعذبين لنهش أجسامهم وأكل لحومهم، وتسليط الكهرباء على أعضاء الجسم الحساسة، وإرغامهم على الجلوس على الزجاج المكسر والمقاعد المشوكة بالمسامير، وغطس رؤوسهم في أحواض المياه، وتعليق الأجسام بشكل معكوس، وإبقائها عارية للحرارة والبرودة، وإرغامهم على شرب ماء الصابون العفنة، وفتح حنفيات المياه في أفواههم حتى تنتفخ بطونهم ثم يصعد الجلادون عليهم للرفس لكي تخرج المياه، وقلع الأظافر بالكلاليب وحرق شعر أجفان العيون بالنار، وسلخ جلد الرأس، وتكوير الأجسام على الأرض المشوكة بالمسامير وربط بعض أعضاء الجسم إلى شجرة وربط الباقي إلى سيارة تجرها حتى تفصلها عن الجسم وإرغام البعض على حفر قبورهم بأنفسهم ودفن أجسامهم حية إلى الرقبة وإبقائها هكذا للجوع والعطش حتى الموت، وتكليف البعض بالأعمال الشاقة كحمل الأثقال، كنس المنازل والطرقات باللسان، وإرغام بعضهم على جر العربات كالخيول وحفر الخنادق ثم ردمها وإعادة حفرها باستمرار، ورمي التبن في الهواء وجمعه، والدوران حول المنزل أو قطعة أرض عشرات الساعات دون توقف، وبناء الجدران وتهديمها ثم إعادة بنائها.

لكن رغم ذلك انتهج طرق تشكيكية تستهدف هذه الأمة في اخص خصوصياتها بتوظيف مقولات ومصطلحات مغلوطة .

ان الديمقراطية بوصفها ممارسة دستورية ليست مطلقة، بل لابد أن تقيد بدستور تتقبله كل القوى الفاعلة، وتحتكم اليه بشرط أن يراعي هذا الدستور المبادئ الديمقراطية، مثل مبدأ المساواة السياسية الذي أقره الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وأقرته الأديان السماوية من قبل، ومبدأ المواطنة ومبدأ الحرية بجميع أبعادها ومبدأ تداول السلطة، ومبدأ ضمان الحقوق المتنوعة . بالإضافة إلى كل هذا فإننا نرى ان الديمقراطية التي

تحاول فرنسا تصديرها إلى الشعوب التي استعمرتها وخصوصا الجزائر هي ديمقراطية تتفق ومصالحها، بمعنى ان المفاهيم التي تقتضيها الديمقراطية تطبق بطريقة ازدواجية فهي احترام للإنسان وتقدير لقيم الحرية التي يحملها الفرنسي وتحقيق للمساواة بين الفرنسيين اما في الجزائر فهي تسلط على الشعب ومصادرة لحريته وقيمه وتفرقة بينه وبين المعمرين

أما حقوق الإنسان التي بلورتها فلسفة الثورة الفرنسية فقد تأثرت بفلاسفة التنوير (روسو، مونتسيكيو، فولتير في فرنسا، كانط في ألمانيا،) وأسفرت هذه الفلسفة عن ظهور جيل جديد يؤمن بالإنسان ويمجده ويعتبره الحقيقة الأساسية بداية من المسيرة التي بدأها ديكارت باعتبار الإنسان أساسا للكينونة والوجود من خلال "أنا أفكر إذن أنا موجود" مرورا بأوغست كونت الذي فرق بين الرجل البدائي والرجل العقلاني ثم بكانط الذي جعل الإنسان ملاكا للمعرفة ومبدؤها الوحيد وصولا إلى سارتر أحد النماذج البارزة لطغيان مركزية الإنسان في مقابل الله.

إن الثورة الفرنسية التي قامت ضد السلطان المطلق للملوك قد أحلت المواطن الحديث محل الملك في التمتع بالسلطان المطلق مع فارق واضح وهو أن المواطن الحديث يستمد سلطته المطلقة من فرديته بينما كان الملك يستمدها من نظرية التفويض الإلهي.

في اعتقادي أن أولى الخصائص التي تشكل ارضية الفكر الغربي الحديث ممثلا في الثورة الفرنسية، وتستخدم اللغة الحقوقية في خطابها يراد منها حجب وتغطية الأبعاد العميقة لاختلال النظم الغربية، هذه الشعارات أصبحت لغة تبريرية جديدة، يغسل النسق الغربي بواسطتها يديه، مما ارتكبه بحق البشرية من جرائم لا حصر لها، كانت الحرب العالمية الأولى والثانية، أدلة كافية، لتبيان ما فعله هذا النظام الغربي من جور وظلم. وما زال يستخدم هذه اللغة إلى الآن وفي أماكن مختلفة.

لقد تحولت مصطلحات العقلانية والتحرر، التي غلف بها النظام الغربي، إستراتيجيته العامة وأطروحاته السياسية، إلى قوة تسلطية، يشتد حضورها، كلما تعمقت أبعاد المواجهة الشاملة بينه وبين من يضعهم على أنهم الآخر الواجب إخضاعه، لدرجة اصبح معها الاستعمار تحضيرا والتدخل العسكري مهمة لتحقيق الديمقراطية.

إن نظرة إلى التاريخ تكشف أن المواطن الأوربي، ما أن يضع قدميه خارج حدود دولته، حتى يصبح قوة وحشية لا ضابط لها، ويحق لها أن تفعل ما تشاء لتروي بذلك كافة الصور الإحباطية التي تخترق بنيان شخصيتها داخل حدود دولتها. وما قامت به الجيوش الأوربية طوال الفترة التاريخية الممتدة بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر، من عمليات إبادة وإفناء لعشرات الملايين من الأنفس البشرية، وما اعتمدته من أساليب وطرق مواجهة، ينطوي على معان كثيرة كاشفة للدور الذي نهضت به الشعوب الأوربية في تلك المرحلة من التاريخ.

إننا أمام معادلة تاريخية دقيقة، مكنت الغرب من الانتقال من موقع المهمش على المستوى العالمي، الى موقع المهيمن والمسيطر بل المتحكم بأقدار العالم أجمع.

لقد استعبدت فرنسا الجزائريين وأذلتهم وحرمتهم من جميع حقوقهم مخالفة المادة الاولى القائلة: يولد جميع الناس أحرارا ومتساوين في الكرامة والحقوق. وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضا بروح الإخاء.و المادة الثالثة القائلة: لكل فرد حق في الحياة والحرية وفى الأمان على شخصه.

وفرضت تمييزا بين الجزائريين والمعمرين وعاملتهم وكأنهم اناس من درجة ثانية مخالفة المادة 2: لكل إنسان حق التمتع بجميع الحقوق والحريات المذكورة في هذا الإعلان، دونما تمييز من أي نوع، ولا سيما التمييز بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، أو الرأي سياسيا وغير

سياسي، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي، أو الثروة، أو المولد، أوأي وضع آخر. وفضلا عن ذلك لا يجوز التمييز علي أساس الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي للبلد او الإقليم الذي ينتمي إليه الشخص، سواء أكان مستقلا موضوعا تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أم خاضعا لأي قيد آخر علي سيادته.

وقد استخدمت طرق مختلفة في التعذيب مخالفة المادة 5: لا يجوز إخضاع أحد للتعذيب ولا للمعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية.

ولم تعترف فرنسا بالشخصية القانونية للجزائريين مخالفة المادة 6: لكل إنسان، في كل مكان، الحق بأن يعترف له بالشخصية القانونية.

قامت فرنسا الاستعمارية بالنفي والاعتقال دون محاكمة مخالفة المادة 9: لا يجوز اعتقال أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفا. ومخالفة المادة 12: لا يجوز تعريض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو في شؤون أسرته أو مسكنه أو مراسلاته، ولا لحملات تمس شرفه وسمعته. ولكل شخص الحق في أن يحميه القانون من مثل ذلك التدخل أو تلك الحملات.

ونهبت ارزاق المواطنين على قلتها مخالفة المادة 17:القائلة

1- لكل فرد حق في التملك، بمفرده أو بالاشتراك مع غيره.

2- لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفا.

وقد حرمت الناس من ممارسة اركان عقيدتهم ومنعتهم من ممارسة حرياتهم الشخصية خلافا لما جاءت به المادة 18:

لكل شخص حق في حرية الفكر والوجدان والدين، ويشمل هذا الحق حريته في تغيير دينه أو معتقده، وحريته في إظهار دينه أو معتقده بالتعبد وإقامة الشعائر والممارسة والتعليم، بمفرده أو مع جماعة، وأمام الملأ أو على حده.

المادة 19:

لكل شخص حق التمتع بحرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حريته في اعتناق الآراء دون مضايقة، وفى التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها إلى الآخرين، بأية وسيلة ودونما اعتبار للحدود.

الخلاصة

أقل جرائم الاستعمار انه شوه الوعي برسمه لصورة المستعمر المتعالية، في مقابل الصورة الدونية لصاحب الأرض. لقد مارس الاغتصاب حتى على مستوى الوعي وأكثر من ذلك أعطى شرعية لفعله وهو امتياز مثير يمنحه لذاته على حساب أصحاب الحق. بعد قراءة عدة فصول من كتاب "المعذبون في الأرض/The Wretched of Earth" لفرانتز فانون/Frantz Fanon المناضل الفرنسي الأغرب ضد الاستعمار الفرنسي.. تقيأ فرنسيته ذات تجلٍ روحاني .. وخاض في ذاته التي فضّل فيها أن يكون حراً فقيراً من أن يكون غنياً مستعبداً فقال "جوعٌ وكرامة خيرٌ من خبز يؤكل في العبودية".. حتى كتب كتابه هذا لينزع كل ورقة توت خفيفة عن جسد الاستعمار وسوءته..